لمّا ينجح مسلسل تلفزيوني في الحديث عن «الحرقة»

أسامة رمضاني
رئيس تحرير العرب ويكلي

لشهر رمضان طقوسه وعاداته صوما وإفطارا وتسلية في تونس وغيرها من مجتمعات المنطقة. وقد اكتسبت تلك العادات على صعيد الاستهلاك التلفزيوني نمطية استجابت طويلا للتوقعات والأذواق واحتياجات شركات الإشهار المتعلقة بنسب المشاهدة المرتفعة أكثر من بحثها عن جودة الإنتاج.

مسلسل تلفزيوني جذب انتباهي على الشاشة الصغيرة خلال شهر رمضان لهذه السنة من حيث جودة إنتاجه وطريقة تطرقه للموضوع الذي اختاره.

عالم "الحرقة" (أو الهجرة غير النظامية باللهجات المغاربية) حيث تحترق أحلام الشباب فيركبون عباب البحر إلى إيطاليا، هو موضوع المسلسل التلفزيوني الذي أنتجته وبثته التلفزة الوطنية التونسية بمناسبة شهر رمضان.

المسلسل رسم صورة للهجرة غير القانونية وملابساتها من منطلق تونسي هو أيضا منطلق أهل جنوب البحر المتوسط عامة، إذ يقدم منظور الهاربين بجلودهم وليس وجهة نظر الغرب المرتعدة فرائصه من المهاجرين السمر والسود القادمين دون تأشيرة

منذ حلقاته الأولى تطرق هذا العمل التلفزيوني لمشكلة الهجرة غير النظامية، بشكل أكثر بلاغة من كل خطب السياسيين التونسيين حول جذور هذه المشكلة وملابساتها وجذورها العميقة: مجتمع أصبح جانب كبير منه ينظر إلى الخارج كمهرب من حياة ضاق أفقها وانعدمت فرص العمل والنجاح فيها.

من خلال أحداث المسلسل يبدو المهاجرون أناسا حقيقيين، حملتهم ظروف الحياة الصعبة عبر طرق مختلفة إلى قارب الهروب الجماعي. وبدوا بمشاعرهم وخيباتهم وأحلامهم المبنية للمجهول قصصا إنسانية ذات معان أكبر من الأرقام التي كثيرا ما تنقلها وسائل الإعلام في أخبارها عن المحاولات الفاشلة وضحاياها.. الذين تحصى أعدادهم ولكن تجهل هوياتهم.

تجتمع في ذات القارب المرأة العزباء الحامل التي تحاول الفرار من ظلم الناس وإنقاذ الجنين الذي في بطنها من بيئة لا ترحم، مع الشاب العامل في ورشة إصلاح السيارات والذي تشجعه أمه على الهجرة غير الشرعية عساه يتخلص من الفقر ولكنها تبكي فراقه عندما يقرر الرحيل، والكهل الكفيف التي لم يعد ينتظر أي شيء من أحد.. بورتريهات إنسانية واجتماعية يجمع بينها البحث عن الأفضل وراء البحر ولو دون جواز سفر أو حتى ضمان في الوصول حيّا إلى الضفة الأخرى.

قدم الإنتاج دون حرج عالم شبكات التهريب والاستغلال الإجرامي لظاهرة الهجرة بحلقاتها المتشابكة انطلاقا من ميناء جرجيس، حيث يسرد القصة اليومية لمصالح الأمن وهي تواجه ليس فقط كبار وصغار المهربين، بل أيضا المتواطئون معهم من بين صفوفهم هم أيضا. عالم رمادي في أخلاقياته وإن كان مفعما بالألوان والصور المبهرة للمخرج لسعد الوسلاتي.

يقول تقديم المسلسل على منصة "ارتفاي" للأعمال السينمائية والتلفزيونية التونسية على الإنترنت إن "مسلسل 'حرقة' يتناول قضية الهجرة السرية من منطلقات مغايرة للمضامين السائدة". وهذا إلى حد بعيد صحيح.

فقد نجح المسلسل في رسم صورة للهجرة غير القانونية وملابساتها من منطلق تونسي هو أيضا منطلق أهل جنوب البحر الأبيض المتوسط عامة، إذ يقدم منظور الهاربين بجلودهم وليس وجهة نظر الغرب المرتعدة فرائصه من المهاجرين السمر والسود القادمين دون تأشيرة.

نجح المسلسل من خلال سيناريو وحوار واقعيين في جعل المتفرج يحس بما يحسه المهاجر، سواء عندما يكون في بلاده يتصارع مع الفقر والبطالة أو عندما يجد نفسه بين براثن المهرّب الجشع أو تحت رحمة الموج الأزرق على مسافة قصيرة من الموت غرقا أو لمّا تباغته الجنة الموعودة بأتعابها.

صوّر الإنتاج الهجرة ميدانا تنتفي فيه الأعراق ويجد التونسي – العربي نفسه يواجه نفس مصير الأفريقي القادم من جنوب الصحراء، ميدان تضمحل فيه الفروقات بين الجنسين إذ تتشابه الدوافع التي تجبر الشاب والفتاة على ركوب الخطر. دون أن تصرح بذلك في خطاب مباشر، ترفض شخصيات المسلسل وأحداثه التصنيفات والأفكار المسبقة ذات الجذور العنصرية، وتظهر أنه لا مكان لها أمام القاسم المشترك الذي يجمع المهاجرين والمهاجرات في رفضهم البؤس أينما كان منشأهم.

علاقة غريبة يربطها المسلسل بالمتفرج التونسي في شهر رمضان. وهو يطرح عليه سؤالا غير متوقع: هل للدراما الواقعية المرتبطة بآلام الناس مكان في الأجواء الاحتفالية التقليدية لشهر رمضان؟

صحيح أن البعض وجد المسلسل مبعثا للإرهاق النفسي الشديد في وقت كان يودّ فيه الهروب من خلال شاشة التلفزيون بعيدا عن واقعه المتعب أصلا.. في رحلة ترفيهية عبر الخيال، لكنه وجد نفسه عوض ذلك في قلب الظروف المؤلمة لشرائح واسعة من الناس يعايشهم كل يوم دون أن يعرف حقيقة معاناتهم.

حسب ردود الفعل المسجلة لدى الشارع يبدو أن أغلبية المشاهدين رحبت بمتابعة مسلسل يسلط الأضواء بحس فني رهيف على أحد تفرعات الأزمة التي تعيشها البلاد ويعيشونها هم بكل تأكيد، بعد أن أصبح شهر رمضان كغيره من شهور السنة والمواسم الدينية مناسبة يتقاسم فيها التونسيون مشاعر الخوف والحيرة، التي فاقمتها الجائحة بضغوط العزل الصحي في البيوت.

هناك بكل تأكيد جمهور لسائر الإنتاجات الكوميدية والعاطفية والدينية التي تؤثث البرامج التلفزيونية والتي يفطر عليها الصائمون في رمضان.

ولكن رمضان 2021 استثنائي، حيث ينام فيه المواطن ويستيقظ والانشغال يمتلك أعصابه إزاء احتمال زيادة تدهور الأوضاع حوله بشكل يهدد شغله ومصدر قوته ويضع على المحك صحته وصحة أبنائه، ويعج ذهنه بتساؤلات كثيرة تبحث عن إجابات.

لم يعد المتفرج على التلفزيون أو المبحر عبر الإنترنت يبحث دائما عن الراحة والتسلية اللتين يفتقدهما في حياته اليومية، بقدر ما هو يبحث عن بعض الإجابات الضائعة.

ومن قال إن المنتج التلفزيوني والمواطن العادي يستطيعان أن يأخذا إجازة من شواغل مجتمعهما لما يحلّ شهر رمضان؟

قد تكون الإجابات أو بعضها في عمل فني تبثه محطة تلفزيونية لا تبحث عن الربح، بعدما فشل السياسيون في تقديمها للشباب الهارب إلى "الحرقة".

وداعا ميشيل كيلو رجل الثورة الحزين

فاروق يوسف
كاتب عراقي

غالبا ما تجري لعبة المصائر في مكان لم يتوقعه المرء. فها هو الكاتب والسياسي السوري ميشيل كيلو يموت في باريس في الحادية والثمانين من عمره، فيما كان في أوقات سابقة قد تحدى نفسه حين أصر على البقاء في دمشق بالرغم من يقينه من أن النظام الحاكم سيعتقله ويحاكمه من غير أن ينظر إلى سجله الإنساني والوطني.

كان يعرف عدوه الذي كان لا يعرفه، ولم تكن المعركة متكافئة. ذلك لم يمنع كيلو من البقاء في سوريا والالتحاق متأخرا بصفوف المعارضة التي ظلت تعامله بشيء من الحذر، لأنها تعرف أن موقفه ليس موقفها تماما وأن ما يفكر فيه لا يعجب الجهات التي تدعمها وتمولها، ولأنه لا يرضى لنفسه أن تكون واجهة أو قناعا.

عام 2005 كان إعلان دمشق تذكرته إلى السجن. ذلك الإعلان كان بمثابة انقلاب غير مسلح على النظام السياسي الذي بدا وفق البيان مستهلكا ورثا ومنتهي الصلاحية. كان في إمكان كيلو يومها أن يهرب من سوريا ويطلب اللجوء في أي مكان من الغرب، غير أنه فضل أن يكمل عصيانه بدلا من أن يكون انقلابيا فاشلا.

كان يعرف أن البيان الذي وقعه مع عدد من المفكرين والسياسيين السوريين هو بمثابة محاولة انتحار، لن يتعامل معها النظام السياسي بطريقة نزيهة. فيفتح أبوابه لنوع وطني من المعارضة كان محظوظا بوجودها. معارضة لا تتآمر ولا تخون ولا تلفق ولا تكذب ولا تمد يدها إلى دول أجنبية. كان كيلو ورفاقه يراهنون على الرئيس الشاب الذي قدروا أن مشروعه يختلف عن مشروع أبيه من جهة علاقته بالزمن.

كانوا على خطأ في تقديراتهم فذهبوا إلى السجن.

وحين وقعت الاحتجاجات وبدأ ربيع سوريا عام 2011 راهن ميشيل كيلو على نوع من العقلانية لم يكن موجودا أصلا. توقع أن الصدمة التي سببها الحراك الشعبي ستقود النظام إلى منحى مختلف. كان يتمنى لو عثر على سبب واحد يدعوه إلى البقاء في دمشق مع احتفاظه بموقفه المعارض لبقاء النظام. غير أن الخطر كان ماثلا أمامه وهو صاحب تجربة لم تكن يسيرة.

كيلو لم يكن معارضا من النوع الذي يجري وراء الهتاف ويروج لما تمليه الدول "الصديقة" للشعب السوري ولم يكن داعية عنف، بل كان في أحيان كثيرة ناقدا للمعارضة، حتى ظن الكثيرون أن المسافة التي تفصله عن النظام هي نفسها التي تفصله عن المعارضة. ذلك ليس صحيحا بالفهم السطحي، غير أن غربة كيلو في معارضته كانت واضحة ومَن أتيحت له فرصة معرفته وقراءة مقالاته كان في إمكانه أن يتكهن بحجم العذاب الذي كان الرجل يعانيه، وهو يتألم لما كان يواجهه المعارضون الحقيقيون من تبخيس واسترخاص واستصغار وابتزاز. لم تكن عشر سنوات عفيفة ونظيفة بل امتلأت بالمؤامرات والدسائس والانهيارات وكان كيلو شاهدا على كل ذلك وهو ما لم يكن يتمنى القيام به.

أتعبته سوريا كثيرا. أتعبه النظام الحاكم لأنه استباح الدولة وكشف عجزه عن التعامل مع أصغر المشكلات التي يعاني منها الشعب بطريقة إيجابية، وأتعبته المعارضة التي شعر أن ميزانها كان مختلا وأنها تحتاج إلى قدر هائل من النزاهة لتمنع تدخل الدول الأجنبية في الشأن السوري.

ما يؤلم أن كيلو كان مضطرا إلى اتباع مصير لم يختره.

ربما أدرك في لحظة ما أن أحدا في المعارضة لن يستمع إليه. ذلك لأن القوى الدولية التي تدعم وتمول المعارضة لم تكن تنظر بعين الرضا إليه. لم يكن رجل أحد. ولن يكون كذلك. إنه شخص ميؤوس منه. يجب ألا يطلع على الأسرار. كان كيلو يعرف أن عليه أن يدير ظهره للجميع لكي يريحهم.

كنت كلما رأيت ميشيل كيلو أرى فيه صورة المناضل الحزين الذي يرفض أن يصرح بأن الثورة قد غدرت به.

هل يمكنني القول بأنه أخذ معه أسرارا كثيرة إلى القبر؟

اليوم يمكننا أن نعيد قراءة مقالاته وهو كاتب قبل أن يكون سياسيا لنعرف أنه كان يشعر بالأسى لأن المعارضة لم تهبه أملا بل ملأته إحباطا، وكان يفكر في شعب صار محروما من العثور على مَن ينقذه. النظام ومعارضته كانا على حد سواء. ما هذا الظلم؟

كيلو لم يكن معارضا من النوع الذي يجري وراء الهتاف ويروج لما تمليه الدول «الصديقة» للشعب السوري، ولم يكن داعية عنف، بل كانت غربته في معارضته واضحة، وهو رجل ثورة وحقيقة في الوقت نفسه

غياب ميشيل كيلو خسارة كبيرة. خسره السوريون المتعلقون بنزاهة ونبل ثورتهم التي كانت واحدة من أهم علامات علاقتهم بالحياة. كان كيلو كريما في نزاهته ونبيلا في تخليه عن الاستعراض. هو رجل ثورة وحقيقة في الوقت نفسه.